مكانة النثر العربي في الاحتجاج اللغوي ومقارنته بالشعر

محمد رضا عياض
أحمد جلايلي
جامعة قاصدي مرباح، ورقلة (الجزائر)

الملخص :

ظهر النحو العربي وظهرت معه أصوله وأدلته التي اُستنبط منها، وكان من هذه الأصول القرآن الكريم بمختلف قراءاته المتواترة والشاذة، ثم الحديث النبوي، ثم كلام العرب الذي تنوع إلى شعر ونثر، ونال الشعر المكانة الكبرى في الاستشهاد، والاحتجاج النحويَيْن؛ لما له من أهمية في نفوس العرب، ولما يحتويه من خصائص تجعل منه مادة خصبة لاستخراج القواعد اللغوية صوتية كانت أم صرفية أم نحوية أم دلالية .

أما النثر ـ وهو الكلام غير الموزون ولا المقفى ـ فكان حظه قليلا في الاستشهاد بالمقارنة بالشعر؛ لأسباب كثيرة، أهمها :

- أن النثر لم يُودِع فيه العربي الفصيح غالبا لغته الراقية الرفيعة التي يرى فيها النحويُّ مادةً غنيةً بالأحكام اللغوية .
- أن النثر لما كان منه لغة الحديث اليوميِّ المتداول بعفوية دون سابق إعداد فهو عُرضة لنقص التراكيب اللفظية والاقتطاع منها ،والاكتفاء عن العبارات بالإشارات والإيماءات ،وكل ما من شأنه أن يُحقِّقَ التواصُل فحسب .
- أن النصوص النثرية لحقها بعض التحريف والتبديل كما ذكر المؤرخون، وأن المدونات منها كانت قليلة، ولم يُحفظ منها، ولم يُروَ إلا النَّزْرُ اليسير ، بخلاف الشعر الذي حُفِظَ منه الكثير وإن كان ضاع أكثره كما ذكر الأولون ، مقارنة بالنثر، وتُنوقِلَت مروياته شرقا وغربا.

لهذه الأسباب ولغيرها كان الاستشهاد بالمنثورات العربية لدى النحاة يسيرا، ومؤلفاتهم ومصنفاتهم شاهدة على ذلك، سواء منهم القدماء والمحدثون، طغت مادة الشعر على مادة النثر في استشهاداتهم واحتجاجاتهم اللغوية المختلفة .

Résumé:

ntaxe arabe est apparue avec ses origines et preuves qui les extraient, le saint coran est l'un de ses origines à avec ses différentes lectures intermittentes et exceptionnelles, ensuite, le discours prophétique, les dictons arabes qui font la différence entre la poésie et la prose.La poésie avait pris une importance considérable, en la citant comme témoignage syntaxique d'une valeur acquise chez les arabes de ce qu'elle avait comme caractéristique, qui la rend fertile à l'extraction des règles grammaticales, phonatoire soit syntaxique soit sémantique.

Quant à la prose c'est un langage non- rythmique et non rimée, elle n'avait pas de chance, au niveau d'exemplification en le comparant à la poésie, pour des différentes raisons:

1. Que la prose n'avait pas utilisé dans l'arabe classique, que les grammairiens la considéraient comme une matière riche en jugement langagier.
2. Que la prose avait été langue d'usage quotidien sans une moindre préparation, elle est exposée au défaut de structure langagière et d'usages des expressions accompagnées des gestes et mimiques, pour pouvoir communiquer.
3. Les textes prosodiques ont suivi des falsifications et modifications comme ils avaient évoqué les historiens, et que les monoclatures ont été rares avec une petite réserve.

Par contre, la poésie était sauvegardée, récitée et transportée de l'est et l'ouest. Et pour cette raison, le témoignage prosodique arabe chez les grammairiens est facile, leurs ouvrages considèrent comme témoignage des

anciens ou nouveau.

la poésie avait marqué sa domination par apport à la

prose dans leurs témoignages et leurs différentes prestations langagières.

Abstract:

Arabic grammar has emerged along with its roots and proofs from which it is extracted. One of the main pillars the Arabic Grammar has relied upon is the Holy Quran with its various recitations both frequent and abnormal then the prophetic Hadith and last the Arabs 'sayings in all its forms: Poetry and prose.

Poetry has been the main source of citation and as it has this great impact upon the Arabs as well as its features which makes it fertile material to extract the linguistic rules phonetic, morphological, syntactic or semantic.

Grammarians have not focused on the prose ,a speech that is not rhymed, in their citation for the following reasons:

The Arabs did see that the high prestigious eloquent speech is said in poem which in its turn a good source for the grammarian.

Since the prose is the language of the daily use, it becomes more exposed to omission, redundancy and imperfection as it focuses only in maintaining contact and communication.

Prose texts were most altered and distorted and the corpuses are not enough compared to the poetic texts though a lot is lost; the main part is kept.

For all these reasons , prose texts are not used a lot in citation , the poetry has the lion's portion in the grammatical citations.

تمهيد:

تنوعت مصادر السماع عند النحاة حينما كانوا يجمعون اللغة، ويستقرئونها، من قرآن كريم بمختلف قراءاته المتواترة والشاذة، ووقع بينهم اختلاف في الاحتجاج بالقراءات إذا رأوا أنها مخالفة لقواعدهم النحوية، وحديث نبويّ عزف الكثير منهم عن اعتباره مادة صالحة للاحتجاج؛ لأسباب مختلفة، منها: أن أغلب رُواته أعاجم، وأن بعضهُ رويَ بالمعنى .

وأما كلام العرب، فقد جعلوه قسما مستقلا بعد القرآن والحديث، وإن كان هذان الأخيران داخلين في كلام العرب، إلا أن عادتهم في ترتيب مصادر السماع أن يُقدِموا القرآن الكريم ثم الحديث النبويّ، ثم كلام العرب شعره ونثره .

ويُلاحظ الدارسُ في احتجاجات النُّحاة أن النصيبَ الأوفر من الاستشهاد إنما كان للشِّعر، وأما النَّثرُ فقد قلَّ استشهادهم به بالمقارنة بالشعر .

وسنحاول أن نهتديَ إلى أسباب تغليب لغة الشِعر على لغة النّثرِ في الاستشهاد على الأحكام اللغوية، بعد أن نُعَرِفَ النثرَ العربيَ ،ونُبَيِّنَ حُجيتهُ وأهميته .

النثر :

تعريفه لغة:

قال ابن فارس: " النون والثاء والراء، أصل صحيح يدل على إلقاء شيء متفرق.[1] "

وهو ترك الشيء بيدك ترمي به متفرقا، مثل : نثر الجوز واللوز، والسكر، وكذلك نثر الحب إذا بذر، والنثور من النساء الكثيرة الولد ... والنثار فتات ما يتناثر حوالي الخوان من الخبز ونحو ذلك من كل شيء[2]، والنثار بالكسر والضم لغة: اسم الفعل ويكون بمعنى المنثور كالكتاب بمعنى المكتوب.[3]

وأما اصطلاحاً: فهو الكلام غير المنظوم أو الذي ليس فيه الوزن، ويعتمد على الحقائق، "ومن ثَمَّ فهو قوي اللفظ متين التركيب، سطحي الفكرة، ينزع نزعة الإيجاز في الجملة والأسلوب ويرسل مقطعاً لا يربط بين أفكاره رابط ، ويستعمل لأغراض مختلفة.[4]"

كما أنه كلام حيُّ؛ لأنه لغة الشعب في مختلف طبقاته يسير مع أخلاق العربي وبيئته، وحديثه اليومي، وتعبيره الذي يلفظ يومياً من أفواه العرب في زمن الاحتجاج في البيوت والشوارع ، والأسواق والمراعي وأماكن العمل، وفي الحروب أيضاً ، بل في كل مكان، ذلك الكلام الذي يتحرر من قيود الشعر، أو هو ذلك القول المتغير الذي لا يحكمه قانون التتابع والاطراد ، كما قال أستاذنا أحمد جلايلي، ويضيف أن النثر: ذلك الكلام اليومي فحدث عن صعوبته بمثل الشعر أو يزيد: فما أشق ما تستخرج منه القواعد حتى لو تم تسجيله بآلات التسجيل الحديثة؛ لأن هذا الكلام بعيد كل البعد عن الاطراد والاستمرار؛ فقد نجد فيه الجملة الناقصة، والجملة التي حذف بعضها، والجملة التي عدل صاحبها عن إكمالها والجملة التي تطوّع السامع بإكمالها، فلم يعترض عليه المتكلم، أو اعترض بجملة أخرى، والجملة التي أغنت الإشارة أو الإيماء ، أو التقطيبات عن ذكرها ، والجملة التي حالت المقاطعة دون إكمالها ، والجملة التي خالطها الضحك أو التثاؤب ، فلم تعد واضحة التركيب، فلهذا السبب ولأسباب تعود إلى المحافظة على القرآن عدل النحاة عن استنباط النحو من الكلام العادي.[5]"

فقد رأى أستاذنا أن الكلام العادي لم يحظ بما حظي به الكلام الأدبي من الاحتجاج والاستشهاد، وليس قصده بعدول النحاة عن استنباط النحو من الكلام العادي أن يكون عدولاً مطلقاً؛ ففي الفصاحة لا يفرق بين نوع كلام فصيح وآخر، ما دام الجامع بينهما كونه عربياً فصيحاً منقولا نقلا صحيحا، بغض النظر عن كونه عادياً أو فنياً.

وعليه يمكن تقسيم النثر نوعين:

- **الأول:** النثر العلمي: وهو النثر الذي يرمي إلى تقديم الحقائق الطبيعية والوقائع التاريخية بلغة مباشرة، بعيدة عن التأنق والتصنع .
- **الثاني:** وهو النثر الذي يترجم فيه الكاتب عواطفه وأحاسيسه وآراءه ،مختاراً لها أرق الألفاظ وأحلى العبارات، ويأتي في أشكال هي : الخطبة، والوصية، والرسالة، والمقالة، والحكاية، والمقامة، والأقصوصة، والمسرحية.

مكانة النثر:

لا شك أن للنثر مكانة ربما تفوق مكانة الشعر من حيث:

01- إنه الفن الأوسع والأقدر على تسجيل خلجات النفس بشكل تلقائي دون قواعد ولا شروط نظم.

02- إن المشاعر الإنسانية لا يمكن أن تنظم كلها شعراً، بسبب ما فيه من قيود الوزن، والتزامات القافية.

أهمية النثر:

للنثر أهمية من حيث إنه يلبي متطلبات الحياة من الكتابة الفنية، من الرسائل والعقود، والصكوك والمواثيق، والخطب والحوارات، يقول الجاحظ:" وقد نقلت كتب الهند، وترجمت الحكم اليونانية، وحولت آداب الفرس، فبعضها ازداد ما انتقص شيئاً، ولو حولت حكمة العرب لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وحكمهم، ولبطل ذلك المعجز، وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها، فقد صح أن الكتب أبلغ في تقييد المآثر من الشعر.[6]"

فلقد نَوَّهَ الجاحظ بمكانة النثر وقُدرته على تسجيل المآثر الإنسانية بمختلف أنماطها، بخلاف الشعر الذي أكثر ما يُسجِّلُ الجوانب الفنية والأخلاقية، وقلما يتعرَّضُ لحياة الناس اليومية من معاش واقتصاد وغيرهما .

ونستطيع الحُكمَ بأن النثرَ أوسعُ من الشعر من حيثً قُدرته على احتواء معاني حياة الناس الأدبية والعلمية، والجمالية وغيرها، والروحية والمادية، والخاصة والعامة وغيرها .

أسباب تغليب لغة الشعر على لغة النثر في الاستشهاد:

غلبت لغة الشعر في استشهادات النحويين الأوّائل منهم والمتأخرين، إلاّ ما كان من ابن مالك الذي اعتمد على الحديث، وأبي حيان النحوي الذي أورد كثيراً من اللغات القبلية في كتابه "ارتشاف الضرَب"، وابن هشام الذي وجه عنايته لآيات القرآن الكريم، وأمّا الاستشهاد والاحتجاج بالنثر فلا يكاد يذكر بالمقارنة بالشعر، وذلك لأسباب حاول بعض الباحثين جمعها فيما يلي:

1- المنزلة العظيمة التي كان يتمتع بها الشعر في نفوس العرب، حيث كانت له منزلة رفيعة في الجاهلية، وكانوا يقيمون الأسواق للتناشد، والتفاخر، والتحكيم بين الشعراء.[7]

2- قلّة ما وصل إلى النحاة من نثر العصر الجاهلي الذي تطمئن إليه نفوسهم.

3- سرعة حفظ الشعر، وانتشار تداوله: إذ إنّ موضوعاته ومعانيه وعباراته ذات طابع خاص يسهل فيها الحفظ، ويتحقق له لذلك التداول والانتشار. [8]

4- أنّ النحاة كانوا ينظرون إلى الشعراء المعتدّ برواياتهم نظرة احترام وتقدير.

5- أنّ الشعر كان يمثل الطبقة العليا من كلام العرب في باديتهم وحاضرتهم أكثر مما يمثلها كلامهم المنثور.[9]

6- اعتماد العرب على الحفظ لا على الكتابة، والذي يحفظ إنّما هو الشعر غالبا.

7- التحريف الذي وقع في المدونات النثرية العربية. [10]

فلهذه الأسباب وغيرها لاَقَى الشعر اهتماما كبيراً من اللغويين، واعتبروه الدعامة الأولى في الاستشهاد، حتى إذا أطلقت كلمة "الشاهد" لم يُقصَد بها إلاّ الشعر، ثمّ إن كُتُبَ الشواهد لا تحتوي غير الشعر، ولا تهتم بما عداه,كشرح شواهد المغني للسيوطي، وتخليص الشواهد وتلخيص الفوائد لابن هشام ، والمقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية للعيني، و"الدرر اللوامع مع همع الهوامع" للشنقيطي، وغيرها.[11]

ويُمكِنُ أن نضيفَ من الأسباب التي دفعت النحاةَ إلى الإقلال من لغة النثر ما يلي:

أ- أنّ النثر لغة عفوية متداولة بين النّاس في شتى مجالاتهم، فلا يسبقها إعداد ولا تحضير سابق، كما هو الحال بالنسبة للشعر، وإذا كان المتكلم العربي ينطق عفواً من دون إعداد فهو لا يكاد يركّز على الجانب اللفظي والجمالي في كلامه، وإنّما على ما يحقق تواصله مع غيره فقط.

ب- أنّ لغة النثر كثيراً ما يحدث فيها انقطاعات كلامية، ويُكتفى عن العبارات اللفظية بالإشارات، والإيماءات الحركية وغيرها من وسائل التفاهم بين المُلقي والمتلقي مما يُصَعِّبُ استقراءها ودراستها.

ج-قلة من اشتهر من العرب الفصحاء بإلقاء الكلام النثري، كالخُطَب والمواعظ، والأمثال، والحكم النثرية، فلا نكاد نسمع بغير قسّ بن ساعدة إلاّ قليلاً جداً، كعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وعمرو بن كلثوم التغلبي، ومن خطباء تميم: أكثم بن صيفي, وعمرو بن الأهتم المنقري[12]، بخلاف الشعر فإنّ شهرة أهله ملأت الآفاق زماناً ومكاناً.

د- عدم حرص العرب على تدوين المنثورات كحرصهم على الشعر وتدوينه، كما هو الشأن في المعلقات وتعليقها على أستار الكعبة مثلاً.

ه- أنّ العرب كانوا يرون في الشعر الوسيلة الأنسب التي يعبرون بها عن أفكارهم، وحكمهم ووصاياهم، باعتبار قداسة الشعر عندهم، وقداسة ما يحتويه.

و- أنّ أغلب اجتماعات العرب المحفلية إنّما كانت تتم بإنشاد الأشعار والتنافس فيها وفي قَرْضِها، ونسجها، ولم يُسجل من ذلك في النثر إلاّ قليل, بالمقارنة بالشعر.

ز- أنّ النثر أقرب إلى اللغة العادية، التي لم يجعلها العرب وعاءً لأفكارهم وتعبيراتهم ذات القيمة,مثلما فعلوا ذلك مع لغة الشعر.

ح-ظهور القرآن الكريم مع ظهور الإسلام مادة نثرية باهرة الإعجاز، غطّت كلّ مادة نثرية سواها، بل ربما أَلْهَت العرب حتى عن شعرهم، بما فيه من اللغة الفصحى التي لا يرتاب العرب _على مختلف لغاتهم_ في رقيّها ولا في نقائها، لاسيما أنّه نزل بلغة قريش وهي ما هي في الفصاحة وسلامة اللغة ؛ بسبب ما كانت تتخيّره من أنقى لغات الوفود العربية التي كانت تفد إليها للحجّ والتجارة.

ط-غنى المادة الشعرية بالقواعد التي يستنبطها النحاة؛ لما يزيد على النثر بخاصية النظم، فوجد فيه النحاة أرضاً خصبة لاستخراج قواعد الضرورات الشعرية، والجوازات التي تسمح للشاعر بارتكاب ما لا يسمح للناثر ارتكابه، ومن هنا أيضا جاؤوا بقواعد الاختيار، والاضطرار.

ولا بد أن نسجل رأيا للدكتور محمد خير الحلواني الذي ذكر " أن النظرة المتأنية في كتاب سيبويه_مثلا_تجده كان يعول على كلام العرب المحكي_وهو نثر_أكثر مما يعول على الشعر،فإذا اجتمع ما جاء من شواهد القرءان وما ورد من كلام العرب أربت الشواهد النثرية في الكتاب على شواهد الشعر ،ومثل سيبويه الكسائي، والفراء، والأخفش".[13]

وقد أوضح أبو المكارم جوهر التفرقة بين الشعر والنثر، وأنّه ينبغي أن يكون على أسس موضوعية بقوله:"وأساليب التعبير الفني تختلف في كلّ جنس منها حتى إنّه يمكن أن يقال: إنّ الأساليب الشعرية لا تصلح للأساليب الفنية النثرية، وأنّ العكس صحيح أيضا، فلا تصلح أساليب النثر للتعبير عن المفاهيم الشعرية، وذلك أنّه إذا كان القصد من استخدام الأساليب النثرية توصيل مفهوم معين إلى السامع أو القارئ، فإنّ الشعر لا يهدف إلى تحقيق شيء من ذلك، فالصورة الشعرية ليست وسيلة، بل يمكن أن يقال: إنّها غاية في ذاتها، إذ بدونها يفقد الشعر جزءاً جوهرياً من بنيته، وإذن فاللغة تختلف إلى حدّ كبير بين الشعر والنثر، وما يتصوره النحاة العرب من أنّ الأساليب اللغوية التي تُقَعَّدُ للنثر يمكن أن

تَصْلُحَ مقاييسَ للشعر تَصَوُّرٌ واهم؛ إذْ للشعر لغته المعبرة عن خصائصه، ومن ثمّ فإنّ له قواعده التركيبية التي لا تخضع لغته لسواها، والتي تتسم بالضرورة بسمتين:

- أولهما: الاتساق مع مضمونه.
_والثانية: الحرص على وجود لون من الإيقاع فيه.

والمضمون الشعري دائما يعكس الحياة الاجتماعية والفكرية وما يجد فيها".[14]

وإنْ كنّا نرى أنّ أبا المكارم قصر نظرته إلى النثر على الجانب غير المنظوم فيه–حسب فهمنا– وإلاّ ففي النثر جانب لا ينبغي إغفاله من صُوَرِ النظم والإيقاع، بالإضافة إلى غير المنظوم فيه, كلغة الحديث اليومي والتواصل المجرّد بين الأفراد.

لقد نتج عن هذا التفاوت بين لغة الشعر ولغة النثر في الاستشهاد أن فَرَّقَ النحاةُ زمنيا بين الاحتجاج بالشعر والاحتجاج بالنثر، واختلف موقفهم من الشعر عمّا اتخذوه من النثر.

يقول أبو المكارم: « ففي النثر فتحوا الباب للاحتجاج بعدما وضعوا لذلك من شروط وحددوا له من قيود، وظلّ السّماع–وهو مصدر الرواية الأساس بعد التدوين– موجوداً ومعتدًّا به حتى أوائل القرن الرابع الهجري، أي حتّى المرحلة الثانية من القياس.

أمّا الشعر فهم يرفضون الاحتجاج به بعد منتصف القرن الثاني.

ولعلّ السّرّ في هذه التّفرقة يعود إلى بيئة كلّ من الشعر والنثر أوّلاً، ثمّ إلى طبيعة كلّ منهما، وما أصابها من تطور في هذه المرحلة ثانيا.

أمّا بيئة النثر التي أجيز السماع منها دون قيود فهي بيئة بدوية لم تتأثر كثيراً، ولا قليلاً بالظواهر اللغوية التي صنعتها ظروف التحضر والاندماج بين الأجناس المختلفة في المدن الكبرى ومن ثمّ ظلت طول فترة طويلة نسبيا محافظة على اللغة، وأكثر خضوعاً للقواعد الموروثة والقوالب المتبعة.

وأمّا بيئة الشعر فقد كانت–طول هاته الفترة– بيئة على قدر كبير من التحضر».[15]

ومن خلال التفرقة التي أجراها أبو المكارم بين الشعر والنثر صحّح مفهوماً رأى أنّ النحاة أخطؤوا فيه وهو أنّهم –في نظره– قرروا أنّ ما يختلف فيه النظم الذي هو في لغة الشعر– عن النثر يُعدُّ من قبيل الضرورة الشعرية ورأى أنّ ذلك غير صحيح، بل يتناقض مع ما قرروه هم أنفسهم من أنّ طبيعة الشعر تختلف في الأداء اللغوي عن طبيعة النثر، وإذا كان الاختلاف بينهما يرتد إلى طبيعة كلّ منهما فإنّ من الخطأ البيّن أن نحكم على إنتاج هذا الاختلاف بالضرورة...بل على العكس من ذلك قد يوحي بتفسير هذه الفوارق تفسيراً خاطئاً، وذلك ما حدث بالفعل من بعض النحاة الذين تصوروا أنّ معنى الضرورة يرتبط بالقهر والاضطرار، وأنّ ذلك يستلزم نفي الاختيار من الشاعر في صياغته الشعرية، فلا يكون إلاّ مضطراً إلاّ إذا ألغيت إرادته إلغاءً بحيث لا يكون أمامه مفر من التعبير بالضرورة.[16]

ولقد رأيت لابن هشام كلاماً يوافق نظرة أبي المكارم هذه للضرورة التي فرق بها النحاة في نظره بين الشعر والنثر، حينما أورد زعم ابن مالك في شرح التسهيل أن اتصال الضمير في قول الشاعر:

وَمَا عَلَيْنَا إذَا مَا كُنْتِ جَـارتَنَا ... أنْ لاَ يُجَاوِرَنَا إلاّكِ ديَـارُ [17]

في قوله: إلاك، حيث وصل الضمير كاف المخاطبة، ولم يجعله ضميراً منفصلاً، زعم ابن مالك أنّ اتصال الضمير ليس بضرورة، لتمكن الشاعر من أن يقول:

.... أنْ لاَ يكُون لنا خل ولا جارُ

قال ابن هشام:« وإذا فُتِحَ هذا الباب لم يبق في الوجود ضرورة، وإنّما الضرورة عبارة عمّا أتى في الشعر على خلاف ما عليه النثر» [18]، ولابن هشام مزيد من التفصيل عند كلامه عن الضرورة الشعرية .

ولا يكاد الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح يفرق بين النثر والشعر في احتجاج النحاة، بل يرى أنّه مادة لغوية مثلها مثل الشعر في معاييره في القبول والرفض والبيئة الجغرافية، وأنّ اشتراط الفصاحة لم يكن من النحاة إلاّ لعنايتهم بالنثر، والاهتمام به مادة معبّرة فيقول:

"اعتمد النحاة في أثناء دراستهم اللغة، وبنائهم لأحكامها وقواعدها على كلام العرب المنثور كمصدر للاستشهاد والاحتجاج لها، حيث اعتمدوا في ذلك على ما نُقِلَ إليهم من نصوص القدماء، كخُطَبِ الجاهليين، وما وصلهم من نثرهم، وممّا رَوَوْهُ هم أنفسهم من كلام القبائل التي رأوا أنّها تمثل اللغة العربية، وما لمسوه في كلامهم من فصاحة وسلامة، حيث اعتبروها بيئةً لغويةً صالحةً للدراسة، وكذلك نجدهم قد خرجوا إلى القبائل المنتشرة في صحراء الجزيرة العربية، من أجل رواية لغتهم، وسماعها من أفواه العرب الخُلّص، وهو ما وافق بداية نشاط الرّواية العلمية للغة نقلاً وسماعاً، ومثلما حدث مع الشعر من الاعتماد على بعضه دون البعض في الاحتجاج والاستشهاد به، حدث مع النَّثر أيضا، ذلك أنّهم لم يقبلوا كلّ ما يسمعونه من كلام العرب دون أن يتأكدوا من فصاحته، بل نجدهم قد قابلوا البعض منه بالقبول والرّضى، والبعض الآخر بالرّفض والإنكار، وبذلك لم يعتدوا به كلّه، ممّا حتَّم عليهم أنْ يضعوا مقياساً لما يمكن أن يقبلوه من النثر ويفضلون بعضه عن بعض، وقد تمثل هذا المقياس في الفصاحة « ومعنى الفصاحة هنا هو اللفظ الذي ثبت في اللغة وكثر، وليس فقط ما خلص من تنافر الحروف ومخالفة القياس، أمّا ثبوته في اللغة وهو أن يكون سُمع بالفعل في استعمال فصحاء العرب، وهذا ما يعنيه سيبويه عندما يذكر العرب الموثوق بعربيتهم أي الذين لم يتأثروا بلغة أخرى، وكانت العربية هي لغة المنشأ عندهم، فلم يأخذوها من معلّم، لأنّ المقصود من ذلك؛ اللغة التي نزل بها القرآن ونُطق بها بالسليقة أجيال من العرب منذ ظهور أوّل شاهد؛ كشعر المهلهل وامرئ القيس، حتّى اختفاء هذه المَلَكَة غير الملقّنة العفوية عند كافّة النّاطقين إلى نهاية القرن الرابع".[19]

والحقيقة أن المتتبع لتأصيلات النحاة يجدهم قد استشهدوا بالنثر كما استشهدوا بالشعر، وإن كان الشائع استشهادهم بالشعر فحسب، والرأيُ الذي نميلُ إليه هو أنه لا فرق بين الشعر والنثر في مسألة الاستشهاد ما دام كلٌّ منهما يُمثِّل مادة لغوية فصيحة ، منقولة نقلا صحيحاً .

الهوامش:

1- معجم المقاييس: أحمد بن فارس بن زكريا،دار الفكر،بيروت لبنان،ط:1 ،1432ه-1433ه،2011م، ص:1011 (نثر).
2- تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري،دار إحياء التراث العربي،بيروت لبنان، ط1، 1421ه2001، 08/55-56 (نثر).
3- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي،دار الفكر،بيروت لبنان،ط1:1425ه-1426ه-2006م ،ص:311 (نثر).
4- تاريخ الأدب العربي: حنا الفاخوري،دار اليوسف،بيروت لبنان،د ت، ص:200-201.
5- محاضرات في أصول النحو: أد:أحمد جلايلي،غير مطبوع، ص:16-17 ، 19 .
6- الحيوان: أبو عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، وأولاده، بمصر، ط:02، 1965م_1384ه : 75/1.

7- ينظر:الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تح: أحمد محمد شاكر،دار الحديث، القاهرة، مصر، ط:1427ه_2006م،64/1_65.
_وطبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمعي، تح: محمود محمد شاكر، شركة القدس، دار المدني، القاهرة مصر، (د ت):24/1-25.
_وجمهرة أشعار العرب : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تح: صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت لبنان، ط:01، 2009م- 1430هـ 41/1-42-43.
_والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تح:د:عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية ،صيدا ،بيروت، لبنان، ط:2012م_1433ه:12/1،وما بعدها.
_وأصول النحو عند السيوطي، بين النظرية والتطبيق:عصام عيد فهمي أبو غربية،الهيئة المصرية العامة، :2006،ص:96.
8- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
9- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
10- تاريخ الأدب العربي : حنا الفاخوري ، دار اليوسف، ، بيروت لبنان (دت) ص: 200_201.
11- ينظر:
أ- شرح شواهد المغني: جلال الدين السيوطي، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان،(دت)، في جزأين.
ب-تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد : ابن هشام الأنصاري، تح: د/عباس مصطفى الصالحي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط:01، 1406ه_1986م،في جزء واحد.
ج_ المقاصد النحوية في شرح شروح الألفية، المشهور بشرح الشواهد الكبر، بدر الدين محمود بن أحمد بن موس العيني، تح : محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ،ط:01، 2005م-1426هـ، في ثلاثة أجزاء.
د_الدرر اللوامع عل همع الهوامع، شرح جمع الجوامع، أحمد بن الأمين الشنقيطي تح:أحمد السيد أحمد علي، المكتبة التوفيقية، القاهرة مصر،(دت)، في جزأين.
12- تاريخ الأدب العربي: 203.
13- أصول النحو العربي: د/محمد خير الحلواني،إفريقيا الشرق،الدار البيضاء، المغرب،ط:2011،ص:76.
14- ينظر: أصول التفكير النحوي: علي أبو المكارم،دار غريب، القاهرة، مصر،ط: 01 ،2007م ، ص:246.
_وينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده:12/1،وما بعدها.
15- أصول التفكير النحوي: 56_ 57.
16- المصدر نفسه: 244_ 245.
_وينظر: ضرائر الشعر: ابن عصفور الإشبيلي، تح: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، بيروت لبنان، (د ت)،ص:13_14_15.
17- البيت مجهول القائل، ينظر الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت لبنان،(د ت):307/1، 195/2، وخزانة الأدب: عبد القادر بن عمر البغدادي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: د/محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط:02، 2009م: 273/5_318،274، وشرح المفصل للزمخشري: موفق الدين بن يعيش الموصلي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: د/إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط: 01، 1422ه_2001م : 317/2_319.
18- تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد : ابن هشام الأنصاري، تح: عباس مصطفى الصالحي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط:01، 1406ه-1986م ،ص:81، وما بعدها.
19- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية: عبد الرحمان الحاج صالح، ، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر :1/ 31.